من مطبوعات المجمع الاسلامي العلمي
رقم : ١٩٥

الدعوة الاسلامية في الهند وتطوراتها

أبو الحسن علي الحسني الندوي

ملتزم النشر و التوزيع
المجمع الاسلامي العلمي ، ندوة العلماء
ص. ب - ١١٩ - لكهنؤ (الهند)

الطبعة الثالثة : ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه الرسالة

وبعد فقد عقد اللواء محمد صالح حرب باشا الرئيس العام لجمعيات الشبان المسلمين فى مصر حفلة تكريم للأستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى فى ٤/ جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ (١٣ - ٣-٥١م) بدار جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة ، حضرها كبار علماء الأزهر و بعض رجالات العالم الاسلامى ، و أحب الاستاذ أن يتحدث فى هذه المناسبة الكريمة عن الدعوة الاسلامية فى الهند وأدوارها وأطوارها ، و اعتبر هذا الحديث القيم هدية من بلاده لقادة الفكر و العاملين فى مجال الدعوة الاسلامية فى أنحاء العالم الاسلامى .

و قد جاءت فى هذا الحديث خلاصة التاريخ وعصارة التفكير و معلومات مركزة تغنى عن الأسفار الكبيرة و الكتب الضخمة فى أسلوب جميل شائق .

وقد آثرنا نشره وإعادة طبعه بعد تنقيح قليل وزيادة يسيرة ، عسى أن يكون زاد العاملين ، و نبراس المصلحين فى كل عصر و بلد .

الناشر

٢١/٤/١٤٠٦هـ

٣/١/١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف انتشر الاسلام فى الهند ؟

تأسست الدولة الاسلامية فى الهند فى القرن الخامس الهجرى واحتضنت العلم والدين ، و قصدها العلماء و الأشراف من أقصى العالم الاسلامى ، و أوى إليها كل من نبا به بلده أو ضاقت عليه أرضه ، واجتمع فيها آلاف من أهل الدين والعلم نزحوا من بلادهم فى فتنة التتار ، و قصدها أهل الهمم العالية والنفوس الكبيرة من المجاهدين والدعاة ، باشارات غيبية ومبشرات صادقة ، أو برغبة فى الجهاد و نشر الدعوة الاسلامية ، فنشطوا فى الجهاد والدعوة ، وانتشر الاسلام بسرعة غريبة بتأثير أخلاقهم الطيبة وشخصيتهم القوية ، و قد أسلم مئات آلاف من الوثنيين على يد الشيخ معين الدين الجشتى (م ٦٢٧ هـ) فى أجمير و ما جاورها من البلدان ، و أسلم آلاف

فى بنجاب على يد الشيخ اسمعيل اللاهورى (م ٤٤٨ ﻫ) والشيخ فريدالدين الأجودهنى (م ٦٦٤ ﻫ) وأسلمت كشمير كلها على يد السيد على بن الشهاب الهمدانى (م ٧٨٦ ﻫ)

الدولة الروحية بجوار الدولة المادية

و لما أصاب الدولة الاسلامية ما أصاب شقيقاتها فى الشرق كله من الترف والبذخ ، و أصبحت لاتمثل من نواحى الحياة الاسلامية و واجبات الحكومة الاسلامية إلا الناحية المادية ، و لا تهتم إلا بجباية الأموال و تعيين العمال ، وارتفعت الحسبة ، و ركبت الحكومات رأسها ، و طغت المادة ، أسس رجال الدين دولا مستقلة فى جنب هذه الحكومات،كانت أعظم سلطاناً ، و أعمق نفوذاً من هذه الحكومات ، واستقلت هذه الدول للروحية بالناحية الروحية والخلقية ، وكان القائمون على هذه الدول يحكمون القلوب والأرواح ، و كثيراً ما شوهد أن الملك كان يحكم على البلاد كلها ويحكم عليه وعلى بلاطه و أزواجه و أولاده وبطانته رجل من الصالحين قد لا يجد قوت يومه و قد يكون دواب هذا الملك أشبع وأنعم عيشاً منه ، و قد شوهد فى بعض الليالى المظلمة أن السلطان شمس الدين الايلتمش (م ٦٣٣ ﻫ) الذى دانت له البلاد كلها و خضع له

ملوك الهند عن آخرهم يستفتح باب الشيخ قطب الدين بختيار الكعكى لعله نام على طوى و يسلم عليه تسليم مملوك على ملك ثم لا يزال يغمز رجله و يكبس بدنه و يذرف الدموع على قدميه حتى يسليه الشيخ و يبشره ويأمره بالانصراف ، وقد طلب علاء الدين محمد شاه الخلجى و هو من أعظم ملوك زمانه من الشيخ نظام الدين الدهلوى (م٧٢٥ﻫ) أن يأذن له بالحضور فأبى ، وكان مع ذلك تأثيره فى المجتمع الهندى الاسلامى و فى رجال الحكومة و حاشية الملك وهم القدوة فى البلد عميقاً و واسعاً ، وقد أصبح الدين شعار الناس الذين لهم اتصال بالشيخ و عمرت المساجد و قلت المنكرات و فشت الأمانة و الصدق و النصح فى التجار ، و كثر التائبون و المقلعون عن المعاصى والذنوب و ازدحم المبايعون على بابه ، إلى غير ذلك مما حكاه المؤرخ البرنى فى تاريخه وكان له ولخليفته الشيخ نصير الدين محمود الأودهى نوع إشراف دينى - على اعتزالهما عن الدولة - على الحكومة الاسلامية و كان اختيار الملك الصالح فيروز تغلق وهو من أفضل ملوك الهند و أرشدهم للملك و مبايعة الناس بتوجيه الشيخ و ترشيحه وكان قد وعده بالدعاء له لطول الحكم والتوفيق إذا قام بالعدل و نصر الاسلام ، و كان عهده من أزهر

العهود الاسلامية و أنضرها فى الهند .

صلة الملوك بالشيوخ و إجلالهم لهم :

وكان الملوك يعتزون بدعاء هؤلاء الفقراء ويتفاءلون بكلما ينطقون به ، فيما حكاه المؤرخ الهندى محمد قاسم صاحب (تاريخ فرشته) أن السلطان اسكندر بن بهلول اللودهى (م٩٢٣)كان فى ناحية بعيدة عن دهلى فلما أخبر بوفاة أبيه و أنه بويع بالامارة قصد شيخاً صالحاً فى ذلك البلد لم يعلم عن الحادث شيئاً ، وطلب منه أن يقرأ عليه العلم ، ورضى الشيخ بذلك ، وجاء الملك بكتاب « الميزان » وهو أول كتاب يدرس فى علم الصرف و أوله « إعلم أسعدك الله فى الدارين أن الكلمة ثلاثة أقسام » و طلب من الشيخ أن يقرأ فيتبرك بذلك ، فقرأ الشيخ « إعلم أسعدك الله فى الدارين » و ما عنده فكرة عن غرضه . فاستعاده الملك ثلاث مرات والشيخ يردد قول المصنف « إعلم أسعدك الله فى الدارين » . و بعد ذلك أطبق الملك الكتاب و قال : لقد نلت بغيتى فما كان قصدى التعلم و قد تعلمت ما فيه كفاية ، و إنما أردت أن يدعو لى الشيخ بالسعادة فى الدارين وقد كان ذلك ، فحسبي من هذا الدرس هذا الدعاء الذى أثق بأنه مستجاب إن شاء الله . و قد كان هذا فعلا ، و الحديث

بالحديث يذكر فقد كان هذا الملك من أعظم سلاطين الهند، وقد كان عهده من أزهر العهود الاسلامية، ملكا وديناً وعلماً، و أيمنها، و مما يستدل به على سعادته و رشده و سلامة قلبه وصلاحه أنه لما سار إلى جونبور لاخماد الفتنة التى أحدثها أحد ملوك المسلمين دعا له بعض العلماء بالنصر والفتح، فتغير لونه وظهرت الكراهة فى وجهه، فسئل عن ذلك فقال: إذا كان الفريقان من المسلمين فلا محل للدعاء لفريق بالنصر والظفر. فان ذلك يستلزم انكسار الفريق الثانى ووقوع المقتلة فيه. وذلك مما يجب أن يحزن له المسلم ويمتعض منه، بل يجدر فى ذلك المحل أن يدعى بالصلح و الاتفاق، و مما يعرف به مقدار حفاوة الملوك بالعلماء و الصالحين و إيثارهم على أنفسهم أن الشيخ شهاب الدين الدولة آبادى صاحب تفسير (البحر المواج) لما مرض و اشتد به الوجع فى جونفور قاعدة البلاد الشرقية. عاده السلطان إبراهيم الشرقى (م ٨٤٠هـ) ودعا عند رأسه أن يكون فداءاً له فيموت و يعيش الشيخ زمناً طويلا لأنه جمال ملكه و بركة زمانه.

سر خضوع الملوك للشيوخ و الدعاة و سيرتهم:

و هكذا كان رجال الدين و عباد الله الذين تجردوا عن

الشهوات وطلب الجاه و المال و زهدوا فى ما عند الملوك فخضع لهم الملوك وأتوهم صاغرين و رفضوا الدنيا فجاءت راغمة تخدمهم، وكان هؤلاء الشيوخ يقومون على الدولة الروحية وإدارتها بنشاط وتيقظ أعظم من نشاط الملوك وسهرهم على مصالح بلادهم وإدارتها، و قد كان الواحد منهم يشرف على الحياة الدينية و الحياة الخلقية فى طول الهند وعرضها، ويرسل الدعاة وينصب المعلمين والمصلحين، و يملأ الثغور ويضبط الأطراف ويراقب سير الحكومة ويكافح المادية الطاغية و يقاوم التيارات الجارفة .

فتنة أكبر، والخطر الأكبر على الاسلام فى الهند :

استمر الحال إلى فجر القرن الحادى عشر الهجرى، و قد تولى عرش المملكة الاسلامية الهندية السلطان جلال الدين أكبر، و هو ملك أمى لم يقرأ و لم يكتب ، و قد ولد و نشأ و أبوه همايون بن بابر فى حالة الفرار من مكان إلى مكان يطارده منافسه فى الملك شير شاه السورى، فنشأ الولد - وارث الدولة التيمورية العظمى - مهملا لم يتلق شيئاً من العلم و التربية ، و رزق عقلا كبيراً و همة وثابة ، وجلس على عرش أبيه وهو شاب فى مقتبل العمر وعنده رغبة جامحة فى الدراسة والبحث ، فجمع حوله عدداً

كبيراً من العلماء والتف حوله علماء الدنيا بطبيعة الحال ، و كان مولعاً بمطارحة العلماء و مناظرتهم ، و طمع العلماء فى رفد الملك وصلاته و تنافسوا فى إرضائه و سروره ، كل يريد أن يستأثر به الملك ويحله فى نفسه المحل الأرفع ويطلق يديه فى المملكة والأموال و لم يكن عندهم شئ يثبتون به براعتهم و تفوقهم إلا هذا العلم الذى يحملونه والدين الذى يدينون به ، فأجروا خيلهم فى هذا الرهان و وضعوا علمهم فى الميدان ، و تناقروا كالديكة ، هذا يغزل و ذلك ينقض ، و هذا يثبت وذلك يرد ، والملك يستمع وينصت إلى مناظراتهم الدينية و مباحثاتهم العلمية وهو أمى لا يستطيع أن يحكم و يستقل بفكرته . فنشأت عنده الشكوك و تزعزعت العقيدة و اضطرب فى الحقائق الدينيـــة اضطراباً عظيماً و أصبح يشك فى الحقائق الدينية . ثم رأى من أخلاق العلماء و ممثلى الدين وحبهم للجاه و نهامتهم للمال و تحاسدهم و تباغضهم ما أساء ظنه بالعلماء أولا و بهذا الدين الذى يمثلونه ثانياً ، فهذا رئيس القضاة يموت فيخرج من بيته لبنات من ذهب كان قد اكتنزها ، و هذا المحدث كان يكيد لمنافسه و يدبر مؤامرة عليه ليسقطه و يهينـــه ، إلى غير ذلك ، وكان الملك مرهف الحس قوى العاطفة ، سريع الحكم ،

لحكم على هذه الجماعة بالفساد و أقصاها وأقصى معهم الدين .

بطانة سوء من العلماء :

ثم زاد الطين بلة أن حظى عنده أخوان من أسرة علمية كبيرة و من كبار أذكياء العصر و نوابغ الوقت و هما أبو الفضل المؤرخ الأديب صاحب (آيين أكبرى) و أبو الفيض فيضى من كبار شعراء الفارسية و من المتضلعين فى العلوم العربية صاحب (سواطع الالهام) التفسير غير المنقوط فى اللغة العربية ، وكانا غريبي الأطوار فيهما شذوذ على و قد لقيا من علماء عصرهما من الازدراء وعدم الاحتفال ومن المجتمع من الانصراف والاعراض ما أثار فيهما روح الانتقام و الغضب وحلا من نفس الملك محلا لم يحله أحد لذكائهما الباهر وشعرهما الرقيق وأدبهما الرفيع ودراستهما الواسعة ، وكان أبو الفيض أقربهما إلى الملك وألصق الناس به فسول للملك الدعوى بالاجتهاد المطلق و أنه صاحب دورة جديدة و أن عصر نبوة محمد ﷺ قد انتهى على هذا الألف وبدأ عهد إمامة السلطان أكبر فأعلن نسخ نبوة محمد ﷺ وانتهاءها وهو فاتحة عصر جديد للسلطان فيه الكلمة النافذة والأمر المطاع

معاداة الاسلام :

ثم ظهرت له فكرة التقريب بين الأديان ليتفادى الخلاف بين الديانات وتجتمع الهند كلها تحت لواء واحد وعلى دين واحد ، فلفق الديانات وابتكر مزيجاً غريبـاً من الطقوس و العبادات والشعائر الدينية المختلفة . فكان يعبد على طريق براهمة الهند ويتقلد الخيط علامة لهم و يولى وجهه إلى الشمس ، ويرطن بكلمات تقديس لها ، ولم يزل - بتأثير محيطه - يبتعد من الدين الاسلامى و يقرب و يمتزج بالبراهمة خاصة حتى نشأ عنده شبه عناد للدين الاسلامى و بغض له و لشارعه . فكان يسوؤه أن يسمى أحد فى بلاطه ابنه محمداً ، و حرم ذبح البقرة فى طول الهند و عرضها ، و أباح الخمر و الخنزير . وأصبح الاسلام غريباً مطارداً فى بلاد استمرت فيها الحكومة الاسلامية خمسة قرون فى عهد رجل يتسمى بالاسلام و ينحدر من سلالة مسلمة لها غيرة على الاسلام ، و هكذا اتجهت الهند كلها إلى الاباحية و الفكر و كادت جهود القرون المتطاولة و دماء النفوس البريئة تضيع و تذهب سدى .

حاجة التجديد إلى عبقرى :

كان خطب الهند و الاسلام أعظم من أن يقوم له الأقزام

من رجال الدين والمتسبين إلى العلم ، فليست المسألة مسألة أفراد و جماعات ، أو مسألة بدع وخرافات ، إنما هى مسألة انحراف دولة من أعظم دول الأرض ، على رأسها رجل من أكبر ملوك العصر ، و حوله رجال من أعلم رجال الوقت و من أدكام ، إنها خطة مدبرة و مؤامرة محكمة على الاسلام بيتها أقوى الناس وأقدرهم ، إن الانقلاب الدينى كان يطلب رجلا عملاقاً فى العلم و الشخصية و فى العقل و المواهب ، إنه كان يحتاج إلى عبقرى عظيم و مجدد كبير يتجرد لمقاومة هذا التيار العنيف الجارف فيحوله من جهة إلى جهة و يغير مجرى التاريخ .

الامام أحمد السرهندى :

إن لله فى دينه شئوناً ، و من شئونه أنه يخلق لكل عصر، رجلا من رجال الاسلام . و لكل غرض سهماً من السهام التى لا تطيش ، فان الله قد تكفل بحفظ هذا الدين القويم والذكر الحكيم ، لقد وجد هذا المصلح فى شخص رجل يقال له (الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندى) تخرج فى علوم عصره كما تخرج أكبر عالم ، وبرع فيها ، وجمع إلى كفايته العلمية و دراسته المتقنة تربية الروح و تهذيب النفس والاخلاص لله و دوام الذكر و حضور القلب .

تخرج فى ذلك على شيخ كبير من شيوخ الطريقة النقشبندية الشيخ عبد الباقى البدخشى نزيل دهلى، واستعان به أبوالفيض (الفيضى) فى‌ما التوى فى كتاب (سواطع الالهام) فرأى عنده القريحة الوقادة والعلم الحاضر، و عرضت عليه المناصب فى الدولة فرفضها لأنه لم يخلق ليشارك فى إدارة هذه الدولة الجائرة إنما خلق ليقومها أو يكسرها - إذا لم يستطع أن يقومها - وينشئ منها دولة إسلامية جديدة.

رأى الشيخ أحمد اتجاه الدولة ومعاداتها للدين ومحاولة القضاء على الاسلام فى هذه البلاد، فاهتزت مشاعره. وتكدر صفو حياته وطار نومه، و ملكت هذه الفكرة عليه شعوره وعقله، وأصبح لا يفكر إلا فى إصلاح الحـــال. والرجوع بالدولة إلى وضعها الاسلامى والمحافظة على مستقبل الاسلام فى هذا القطر العظيم.

الخطر فى الثورة العسكرية:

و لكن كيف السبيل إلى ذلك ولا أمل فى نجاح الثورة، فهو رجل فريد وحيد لا يملك إلا قلبــه و قلمه. و لا أمل فى الانقلاب العسكرى فالدولة شابة فتية لم يصبها شئ من الهرم والضعف بل قد توسعت و توطدت فأصبحت إمبراطورية عظيمة، وهى الامبراطورية الثانية التى عرفتها الهند بعد امبراطورية أشوكا.

وقد كسب الامبراطور أكبر ود أمراء الهند وأقيالها بتزوجه فيهم وتقريبهم إلى نفسه ، فأصبحت دولة راسخة مشيدة البنيان موطدة الأركان ، لها وزراء من كبار راجبوت ، وجيش قوى من أقوى جيوش العالم وأحسنها تدريباً ونظاماً ومالية عظيمة ، فكيف يقاوم هذه الدولة المنظمة و كيف يؤدى رسالته و يقوم بمهمته ؟ إنها لمهمة تنوء بالعصبة أولى القوة فكيف بفرد فقير يسكن فى قرية ..!

من أين يبدأ الاصلاح ؟

ولكن الشيخ أحمد صمم على أداء رسالته ، واهتدى فى تفكيره المخلص المجهد إلى نقطة مهمة وهى نقطة الفتح ، إن الملك قد أفسده المفسدون فثار على الدين وانحرف عن الجادة ، ولكن ليس هو الدولة كلها ، وليس هو الشعب كله ، و قد كتب عليه الموت ، وهو خاضع للسنن الالهية ، فيموت و يخلفه غيره ، فلابد أن أؤدى رسالتى وأتصل ببلاطه وأركان دولته ، ولا موجب للقنوط من الفطرة الانسانية فالصلاح فيها أصيل ، والفساد عليها طارى ، فلأجرب ولأحاول ، وإن الله ناصر من نصره وخاذل من خذله.

الأسلوب الحكيم :

جرد الشيخ أولا نفسه و فكره من كل أمل و طمع فى ما

عنـــد هؤلاء من مال و نشب و عز و جاه ، و ركز فكره على الاصلاح والنصيحة حتى رأى أن ما عندهم من دنيا لا يساوى فى نفسه إلا جيفـــة عليها كلاب ، ثم اتصل برجال البلاط الملكى وأركان الدولة وتعرف إليهم ، فإذا هم يجلونه ويحلونه من نفوسهم محلا لا يحلونه المتملقين و المتزلفين ، ويعرفون أن هذا الرجل من طراز آخر غير الطراز الذى جربوه ، أن هذا رجل قد تمرد على المادة ، وتمرد على المجتمع ، وخرج من سلطان المطامع والشهوات و رأوا فيه من قوة النفس و الحرية و معانى الانسانيـــة السامية ما لم يروه فى نفوسهم ، و رأوا أنفسهم أقزاماً لا يتطاولون إلى إنسانيته الرفيعة و رجولته الشامخة ، فخضعوا له كما يخضع كل صغير للكبير ، و كل فقير للغنى ، و تضاءلوا أمامه كما تتضاءل الكثبان والربى أمام الطود الشامخ والجبل الناطح للسحاب .

و هنا يقع بالسلطـــان أكبر حادث الموت ، و يخلفه ابنه جهان كير و هو يحمل للشيخ من التقدير ما لم يكن يحمله وه . و لكن بلاطه لا يخلو ممن يضمر للشيخ العداء و يحسده . فدبروا له المكيدة ، و زينوا للملك أن يطلبه و يمتحنه ، و حضر الشيخ فعلا . وكان من العادات المتبعة أن كل من يدخل على الملك يسجد

له تحية، فامتنع الشيخ و حياه بتحيـــة الاسلام ، فثار ثائر الملك و سجنه فى معتقل كواليـار ، ولبث فى السجن بضع سنين ، يشتغل بالعبادة و يدعو المسجونين إلى الاسلام، فأسلم على يده - كما جاء فى دائرة المعارف الاسلامية - مئات من المسجونين .

ثم ظهرت للملك براءة الشيخ و علو منزلته ، فأطلقه و دعاه و أكرم مثواه ، و قضى الشيخ شهر رمضان عنـد الملك و الملك يصلى خلفه التراويح و يذاكره و يفيد منـه فى الدين ، حتى رسخت فى قلبه محبته و علت فى عينـه منزلته فرد الشيخ إلى وطنه مكرماً مبجلا .

التأثير فى بلاط الملك و رجال دولته :

و نشط الشيخ فى التـأثير فى بلاط الملك و رجال دولتـــه و جيشه و راسلهم و راسلوه و بايعه منهم كثير و أحبه أكثر ، و تأكدت الصداقة بينهم ، فكان الشيخ يكتب إليهم رسائل رقيقـة مرققة تأخذ بمجامع القلوب وتهز النفوس ، وهى من أبلغ الرسائل و أعظمها تأثيراً فى القلوب ، يصور لهم غربة الاسلام فى بلاده فيبكى و يبـــكى ، يقول فى رســـالة : « واحزناه ، واحسرتاه ، وامصيبتاه ، إن أتباع محمد ﷺ - و هو محبوب رب العالمين -

غرباء مهانون فى بلادهم و أعـــداؤه مكرمون ، إن الباطل بارز منصور ، و إن الحق مخذول مستور ».

و يقول فى رسالة : « لقد أتى على الانسان والمسلمين حين من الدهر فى هـذه الديار - يعنى به عهد الملك أكبر - إذا عمل مسلم بحكم شرعى يسجن و يعاقب و يهان و يعذب ، و الديانات كلها حرة متمتعة بكل حق ، لقـد شمت بالمسلمين الأعداء و سخروا منهم ، وأصبحوا هدفاً لكل تجريح و إهانة ».

و يستثير همم رجال الدولة المسلمين و يستنهضهم لخـدمة الاسلام وإقالته من عثاره ، فيكتب إلى خانخانان - و هو قائد قواد الجيش و الركن الأعظم للدولة - « إن ميدان البطولة الاسلامية لا يزال خالياً ينتظر فارساً من فرسان الاسلام ، فهل تسبق إلى هذه السعادة و تحرز قصب السبق و تنصر هذا الدين المظلوم ، و تغضب لهذا الحق المهضوم ، و تبلغ بجهادك إلى حيث لا يبلغه المتعبدون الصائمون القائمون ، فحيهلا يا أهل الغيرة والفتوة و يا أهل الشهامة و المروءة ».

و هكذا يكتب إلى خان أعظم أكبر الأمراء فى عهد جهانكير والسيد فريد أحد الوزراء و المستشارين فى الدولة ، و قـد نفذ

بروحانيتـــه فى قلوبهم و سيطر على عقولهم ، حتى كان يملى عليهم الأحكام كما يملى ملك البلاد ، فيمتثلون أمره وينفذون رغباته ، و يوجه الدولة وهو قاعد فى زاويته بسرهند توجيهاً دينياً بواسطة تلاميذه الروحيين و خدمته المخلصين الذين يديرون دفة الحكومة ،

سمع مرة أن الملك جهانكير يفكر فى أن يجمع حوله جماعة من كبار العلماء الذين يشيرون عليه فى أمر الدولة ، واستعان بوزرائه أن يختاروا له هؤلاء العلماء ، فحذرهم الشيخ من سوء العاقبة والوقوع فى ما وقع فيه الملك أكبر ، وتورطت بسببه الدولة الاسلامية فى الالحاد والكفر . فقال : إياكم أن تجمعوا حول الملك علمـــاء السوء المتنافسين ، و رجال المـــادة الطامعين ، و قطاع الطريق ولصوص الدين ، فيفسدون فكرة الملك ويضرون الدين من حيث يشعرون و من حيث لا يشعرون ، و لكن اختـــاروا له صفوة من العلماء الذين تجردوا عن حب المال و الجاه و أخلصوا لدينهم أو اختاروا له رجلا واحداً ممن يتقى الله و يخشـــاه من الراسخين فى العلم .

يتغير اتجاه الدولة و ترجع الهند إلى الاسلام :

و ظل الشيخ مثابراً على دعوته إلى وفاته (سنة ١٠٣٤هـ)

حتى تغير اتجاه الدولة وتغيرت سيرة الملك و نفسيته ، و أصبحت الدولة تتقدم كل يوم من حسن إلى أحسن ، فخلف جهان كير ابنه شاهجهان وكان له فى الشيخ رأى جميل و معه صلات طيبة . هذا هو الملك الذى لما جلس على عرش الطاؤس الذى كلفه ملايين من الجنيهات وكان تحفة فنية ، نزل عنه و خر لله ساجداً وقال : عجباً لفرعون جلس على عرش من الابنوس فقال: أنا ربكم الأعلى ، وها أنا ذا أحمد لله شكراً وأقع له ساجداً مقراً بعبوديتى و ضعفى و قدرته و كبريائه ، و بذلك تستدلون أيها السادة على تغير النفسية و تطور الدولة .

السلطان أورنك زيب من غرس الامام السرهندى :

وخلف شاه جهان السلطان العظيم الملك الصالح أورنك زيب عالم كير وهو ممن عنى أولاد المجدد بتربيته وثقافته ، فنشأ متعبداً متبعاً للشريعة فقيهاً فى الدين غيوراً عليه ، حريصاً على تطبيق أحكامه و إصلاح المجتمع الفاسد و تقويم الحكومة الزائغة ، و كان الشيخ محمد معصوم ابن الشيخ أحمد السرهندى و خليفته مهتماً بتربيته ومستقبله ، يخاطبه فى رسائله « بناصر الدين ومعقل الشريعة » و قد طلب منه الأمير الشاب أن يرسل له من يربيه التربية الروحية ؛

فأرسل إليه ابنه الشيخ سيف الدين السرهندى فلقنه الذكر على طريق السادة النقشبندية و داوم عليه الأمير حتى ظهرت فيه آثار الذكر ، و بشر به الشيخ سيف الدين والده الشيخ محمد معصوم وأزال من قصره المنكرات .

مآثر أورنك زيب الاسلامية :

و أراد الله بالمسلمين فى الهند خيراً إذ كان أورنك زيب خليفة أبيه شاه جهان فى الامبراطورية المغولية ، فانتصر به الدين وعز المسلمون ، وهان الكفر ، وزالت المنكرات ، وبطلت المكوس الجائرة ، ووضعت الجزية على غير المسلمين ، ويذكر المؤرخون من استقامة أورنك زيب على الشريعة الاسلامية ومن عبادته وصلاحه ما يدهش رجال هذا العصر ، فقد حفظ القرآن بعد جلوسه على العرش ، و جمع أربعين حديثاً و شرحها . و أمر بتدوين الفتاوى لتكون دستوراً للملكة . و ألف له لجنة كبيرة من العلماء و كان يشرف على هذه اللجنة و يطلع على عملها يومياً و يقرأ قبل النوم كل ما كتب فى هذا الموضوع ؛ وهى الفتاوى المشهورة (بالفتاوى الهندية) و يواظب على الجمع و الجماعات ، و يلتزم صلاة الجمعة فى جامع دهلى وإن كان بعيداً عنه . ويصوم ثلاثة أيام فى الأسبوع

ويحيي ليالي رمضـــان بالتراويح و يخرج زكاة ماله ، و كان شديد الانكار على المنكر ، شديد المحاربة للبدع و الغناء والمزامير، وكان مع هذا التدين أكبر الملوك الذين عرفتهم الهند ، و أوسعهم ملكا وأعظمهم سلطاناً ، وأقدرهم على الادارة وأعلمهم بالسياسة ، و قد انقلبت به الحكومة المغولية من دولة ثائرة على الدين ثم دولة منحلة ، إلى دولة متمسكة بالدين محافظة عليه .

نجاح الامام السرهندى فى مهمته و أهدافه :

وهكذا استطاع رجل وحيد بقوة إرادته و صدق عزيمته ، و إيمانه القوى و معرفته بقيمة نفسه ، واحتفاظه بقوته ، و إبائه من أن ينفقها فيما لم تخلق له و ما لا يعود على الاسلام بطائل ، و تجرده للدعوة ، وتركيزه جهوده كلها على إنهاض الاسلام من كبوته فى هذه الديار ، لقد استطاع هـــذا الرجل بهذا التوفيق ، أن يحدث انقلاباً فى الحكومة و اتجاهها ، و استطاع أن يقضى على عقيدة وحدة الوجود التى تغلغلت فى أحشاء التصوف ، والأدب و الشعر ، وعلى فكرة استقلال الطرق عن الشريعة ، و على كثير من العقـــائد و الأفكار و العادات التى تسربت إلى المسلمين من الجاهليات المختلفة .

ضعف الحكم الاسلامى فى الهند :

ثم توالى على عرش الدولة التيمورية بعد أورنك زيب ملوك ضعاف من طراز الخلفـــاء العباسيين فى بغداد فى العهد الأخير لا يملكون من أمرهم شيئاً ، ينصبون ويعزلون كالأطمار البالية ، واضطرب حبل الدولة و كثرت الفتن والمصائب ، و هكذا لم تعد الدولة مركز الحياة و لم يبق لها السلطان و القدرة على توجيه البلاد - حيث إذا صلح الملك صلحت الدولة و صلحت البـــلاد كلها - فليس مركز الملك الجالس على عرش دهلى مركز القلب فى الجسم إذا صلح صلح الجسد كله و إذا فسد فسد الجسد كله ، إنما هو صورة لا تنفع و لا تضر ، إذن فلابد من العنـاية بالشعب مباشرة بدل الحكومة ، والعناية باصلاحه وتربيته و تثقيفه الاسلامى .

الامام ولى الله الدهلوى :

هنا قام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى (م١١٧٦هـ) المشهور بالشيخ ولى الله ، وهو أحد حكماء الاسلام ونوابغه وكبار المفكرين الاسلاميين ، من طراز الامام الغزالى و شيخ الاســلام ابن تيمية ، فلاحظ خمس نقط فى حياة الشعب الهندى .

خطته فى الاصلاح :

(١) إن كثيراً من المسلمين قصروا فى فهم (التوحيد الاسلامى) وأحاطت بعقيدتهم غيوم من الجهالات والظنون الفاسدة و العادات الجاهلية ، فلابد من إبراز هذا (التوحيد) فى نقائه و وضوحه و شرح ما كان عليه أهل الجاهليــة من اعتقاد فى الله حتى يظهر الفرق بين عقيدتهم و بين ما جاء به الاسلام .

(٢) الشعب ليس له اتصال مباشر بالكتاب والسنة ، و قد حال العلماء بينه وبين دراسة القرآن وفهمه بعلة تعذر فهمه للعامة ، و خوف انحلال سلطتهم الروحية و سيادتهم العلميــة ، فلم يترجموا ألفاظ القرآن إلى لغــة البلاد و لم ينشروا كتب الحديث ، فلابد إذن من نقل معانى القرآن وأحكامه إلى لغــة البلاد ، و الاقبال على كتب السنة و حديث رسول الله ﷺ .

(٣) ثقافة علماء الهنـد ضعيفــة ضئيلة فى العلوم الدينية ، وبضاعتهم مزجاة فى الحديث خصوصاً ، فلابد من نشر علم الحديث ، فدرس الصحاح و المؤطأ ، و أقبل الناس على دراسة هذه الكتب حتى أصبحت للهند مكانة مرموقة فى العالم الاسلامى فى خدمــة الحديث بفضل جهود هذا البيت العظيم و مؤسسه .

(٤) لاحظ أن العالم الاسلامى سوف يستقبل عصراً عقلياً و ثورة فكرية ، فلابد من إيضاح الفكرة الاسلامية و جلائها ، و بيان أسرار الدين و حكمه وأصول التشريع الاسلامى ، و لابد من شرح نظام الخلافة فى الاسلام ، و أساليب الاسلام و أسسه فى تنظيم الحياة والمجتمع ، فألف كتباً لا تزال فريدة فى مكتبة الاسلام العامرة منها (حجة الله البالغة) و (إزالة الخفاء ، فى خلافة الخلفاء) .

(٥) لاحظ أنه لا أمل فى نهضـــة الأسرة الملكية الهندية و تجديد شباب الدولة التيمورية ، لأنه — كما قال ابن خلدون — « إذا نزل الهرم بدولة لا يرتفع » فلا فائدة فى بذل القوة لاصلاحها وتقويتها ، ولابد من إعداد جماعة تحدث انقلاباً إسلامياً وتؤسس دولة إسلامية جديدة على أساس دينى على جديد .

نجاحه فى عمله :

قام الشيخ ولى الله و أصحابه بمهمة هـــذا التجديد الاسلامى خير قيام . فنشروا العلم الصحيح و أذاعوا مصادر الدين الأولى و ألفوا كتباً دسمة قوية مبتكرة تمهد العقول والنفوس لاحداث انقلاب إسلامى وإنشاء دولة إسلامية ، و خرج تلاميذ و رجالا

يقومون بهذه المهمة ، و قام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوى (١٢٣٩هـ) فدرس و ألف ، و خرج وخلف التلاميذ الكبار و العلماء الفحول ، نشروا علم الحديث و شمروا عن ساق الجد فى نصر الدين ومحاربة البدع ، والدعوة إلى الكتاب والسنة وتزكية النفوس ، حتى نفقت سوق الحديث و قامت دولة العلم ، واستعدت النفوس للنصر المؤزر للدين .

الامام أحمد بن عرفان الشهيد و رفقته و تأثيرهم فى الحياة :

و فى الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجرى قام السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد الذى تخرج على الشيخ عبد العزيز - ومعه الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغنى بن الشيخ ولى الله الدهلوى - فدعا الناس إلى الدين الخالص والتوحيد واتباع السنة ، وحارب الشرك و الجاهلية و البدع محاربة سافرة شديدة ، وبث فى الشعب روحاً دينية قوية لم تعهد من قرون متطاولة ، و دعا الناس إلى الايمان والاحسان و التقوى والجهاد فى سبيل الله ، وقام بجولات واسعة فى الهند تاب فى خلالها ألوف من المسلمين ، و أقفرت الحانات وغصت المساجد ، وكسدت سوق البدع ، والتف حوله المخلصون والعلماء الربانيون وخرج للحج عام ١٢٣٦هـ ومعه أكثر

من سبعمأية رجل ، و تشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوف من المسلمين فى هذا السفر ، وكان الناس يقصدونه من كل صقع ويدخلون فى الخير أفواجاً ، حتى لم يحرم ذلك المرضى فى المستشفى ، وكان الناس يتساقطون عليه كالفراش ، وأسلم عدد كبير من الكفار. وكان من تأثير مواعظه و دخول الناس فى الدين وانقيادهم للشرع أن وقفت تجارة الخمر فى كلكته ـ وهى كبرى مدن الهند و مركز الانجليز ـ و أقفرت الحانات واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة لكساد السوق وتعطل تجارة الخمر.

وبعد الرجوع من الحج نادى الامام وأصحابه بالهجرة و الجهاد فى سبيل الله . فهان على المتصلين بهم بذل نفوسهم و الهجرة من أوطانهم والتخلى عن أموالهم ، وتلقوا التربية الحربية . ثم هاجروا مع إمامهم السيد أحمد ووزيره الشيخ إسمعيل إلى بلوجستان و منها إلى أفغانستان ، لحدود الهند الشمالية حيث حاربوا « السك » الذين كانوا قد احتلوا بنجاب وأذاقوا المسلمين سوء العذاب ، وهزموهم غير مرة و كذلك كل من وقف فى سبيلهم من أمراء الأفغان وهم يريدون أن يوغلوا فى الهند ويجلوا الانجليز ويؤسسوا دولة إسلامية تمتد من الهند إلى حدود أفغانستان . وهكذا تتصل الدول

الاسلامية بعضها ببعض حتى تكون سلسلة من حكومات إسلامية ، و أسسوا فعلا دولة فى الأرض التى فتحوها و تقع فيها مدينة « بشاور » ، و طبقوا نظام الاسلام المالى و الادارى تطبيقاً دقيقاً ، وظهر منهم من تنفيذ أحكام الشرع على أنفسهم و على غيرهم ومن الجمع بين العبادة والجهاد ، والأمانة والعدل والإستهانة بالحياة والعزوف عن الشهوات ، والرحمة بالمسلمين و الشدة على المحاربين من الكفار ما جدد ذكريات القرن الأول .

و لكن لم تشأ أهواء رؤساء القبائل الأفغانية ومصالحهم المالية أن تبقى هذه الحكومة التى تحكم بما أنزل الله وتفرض عليهم أحكام الاسلام المالية والقضائية ، فثاروا على عمالها و قتلوهم ركعاً و سجداً ، و هاجر بقية المجاهدين مع إمامهم إلى وادى « بالاكوت » فى طريقهم إلى كشمير التى كانوا يريدون أن يتخذوها مركزاً لنشاطهم ، و هنا حصلت آخر معركة بينهم وبين جيش عظيم من « السك » الذى اهتدى إليهم بدلالة بعض المأجورين من المسلمين ودهمهم ، وقتل الامام و كبار أصحابه ، وذلك سنة ١٢٤٦ هـ و اعتصمت البقية الباقية بالجبال و لم يزالوا قائمين على الحق ، مرابطين على الثغر ، مشمرين عن ساق الجد ، إلى آخر

ساعة ، جزاهم الله عن الاسلام خير الجزاء .

مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنة والعاملين بالحديث :

ونشطت حركة نشر الحديث و الدعوة إلى الكتاب والسنة ونبذ البدع والخرافات . بعد ما قام تلاميذ الامام ولى الله الدهلوى وأنجاله وأحفاده بتدريس كتب الحديث و محاربة البدع والعادات الجاهلية المحلية ، و قام السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد والعلامة محمد اسماعيل الشهيد بالدعوة إلى الدين الخالص ، والعقيدة الصحيحة السنية ، و الرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح والقرون المشهود لها بالخير . ونشطت العقول و تحركت الهمم ، و كثر الدعاة إلى الدين والمكافحون للفساد ، وكثر المعتنون بعلوم الكتاب و السنة ، والمؤلفون فى المقاصد الدينية ، فى اللغة الأردية الشعبية فى أسلوب سهل واضح .

و نشأت من هذه الحركة التعليمية الدعوية مدرستان تتفقان على الأساس وتختلفان فى المنهاج إحداهما مدرسة «صادق پور» (۱) السلفية ، رائدها العلامة ولايت على العظيم آبادى من كبار خلفاء السيد الشهيد و أحد العلماء الربانيين فى الهند فى العهد الأخير ، و هى متشبعة بروح دعوة التجديد والجهاد التى قادها السيد الشهيد

(۱) صادق پور حى من أحياء مدينة « بتنه » عاصمة ولاية بهار كانت مركزاً لأنصار السيد الشهيد .

و العلامة الشهيد ، و هى تتسم بالجمع بين الدعوة و روح الجهاد والعمل بالحديث و تزكية النفس وعمارة الباطن، على طريقة السيد الشهيد والامام ولى الله الدهلوى والمجدد السرهندى .

والثانية مدرسة العلامة السيد نذير حسين الدهلوى (المتوفى ١٣٢٠م) و هو تلميذ الشيخ محمد اسحاق بن أفضل الدهلوى سبط الشيخ عبد العزيز الدهلوى، وقد اشتغل بتدريس الحديث الشريف مدة طويلة ، و رحل إليه العلماء و الأساتذه من أقاصى البلاد . و تخرج عليه علماء كبار ، درسوا و ألفوا فى الحديث ، منهم العلامة شمس الحق الديانوى و مولانا محمد بشير السهسوانى ، والحافظ عبد المنان الوزير آبادى ، و العالم الربانى السيد عبد الله الغزنوى الأمرتسرى ، وابنه السيد عبد الجبار الغزنوى (١) وآخرون كان شعارهم العمل بالحديث ، و عدم التقيد بالتقليد ، و تختلف درجاتهم و أساليبهم فى التمسك بهذا الشعار و الدعوة إليه .

و ينخرط فى هذا السلك المؤلف الكبير العلامة السيد صديق حسن القنوجى البهوپالى المتوفى (١٣٠٧) و هو معاصر للسيد نذير حسين الدهلوى و تخرج على تلاميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوى والشيخ محمد إسحاق بن أفضل، وعلى علماء اليمن المحدثين ،

---

(١) و كانا أقرب إلى مدرسته السيد الشهيد من زملائهما الآخرين بالجمع بين العمل بالحديث و الربانية الصافية و الروحانية القوية .

و قد خدم علوم السنة بالتاليف و النشر و بذل الأموال الطائلة واحتضان العلم والعلماء.

ثورة الهند و رد فعلها :

و فى سنة ١٨٥٧م ثار المسلمون ثورة عظيمة للتخلص من الانجليز ، ولكن أخفقت هذه الثورة و حلت الحكومة الانجليزية محل شركة الهند الشرقية فكان الأمر أشد ، و دخلت الهند فى حكم بريطانيا المباشر ، وكونت الامبراطورية الانجليزية ، فتسرب اليأس إلى نفوس المسلمين و فقدوا الثقة بأنفسهم ومستقبلهم ، و ضعفت روح المقاومة ، وهاجر كثير من العلماء و رجال الدين إلى الحجاز ، وأصبحوا يعتقدون أن الحكم الأجنبي فى الهند ضربة لازب ، وانبث دعاة المسيحية والقسوس فى القرى و المدن يدعون إلى المسيحية علناً و يشنعون على العقيدة الاسلامية و الشريعة المحمدية ، و يعلنون أن دولة الاسلام قد زالت و أن عهده قد انقضى و دخلت الهند فى الحكم المسيحى ، فليتهيأ المسلمون لاستقبال هذا الحكم و ليقبلوا على دين الحكومة و طبقت الحكومة نظام التعليم المدنى وهو يهدف إلى تخريج طراز من الناشئة لا يصلح إلا لادارة جهاز الحكومة الانجليزية وتنفيذ برامجها ، وكثيراً ما كان

أفراد الجيل الجديد ينسلخون عن الاسلام انسلاخاً كلياً ، ويثورون على الحضارة الاسلامية والديانة الاسلامية بتأثير التعليم والتربية في مدارس الحكومة التي كان يديرها الانجليز أو أشباه الانجليز ، و بسبب « مركب النقص » الذى أصيب به المسلمون في عصر الاحتلال و دهشة الفتح التي أصابتهم ، فأصبح المسلمون في عقر دارهم يغزون سياسياً وثقافياً و دينياً و انقطع الأمل في كل ثورة و انقلاب عسكرى .

معهد ديوبند و خدمته للدين :

ولم ير العلماء أمامهم طريقاً إلا فتح المدارس العربية والمعاهد الدينية ، فأنشأوا هذه المعاقل ليحتفظوا ببقايا الحياة الاسلامية وليكافحوا تيار الغرب المدنى والثقافى ، ويخرجوا منها دعاة الاسلام والوعاظ و المرشدين و علماء الدين فليحفظوا على المسلمين دينهم و يعيدوا الثقة إلى نفوسهم ، فأسس مولانا محمد قاسم النانوتوى (م ١٢٩٧هـ) (مدرسة ديوبند) سنة ١٢٨٣ هـ ، و أسس مولانا سعادت على (مدرسة مظاهر العلوم) فى سهارنفور فى نفس ذلك العام ، ثم تواترت المدارس الدينية فى أنحاء الهند ، وقد كان لهذه المدارس فضل كبير فى نشر الدين والدعوة الاسلامية ،

و فى نشر الثقافة فى طبقات الشعب ، ومحاربة البدع و الخرافات ، و بث الروح الدينية فى الجماهير ، و قد نجحت هذه المدارس فى رسالتها الدينية نجاحاً باهراً .

و كان لأحد أبناء دار العلوم ديوبند وهو الشيخ أشرف على التهانوى (م ١٣٦٢هـ) سهم كبير فى نشر العقيدة الصحيحة و إصلاح النفوس و تهذيب الأخلاق والدعوة إلى الله .و قد عمل وحده عمل مجمع علمى كبير ، و ألف كتباً و رسائل تربى على ثمانماة ، و قد انتشرت انتشاراً كبيراً و أثرت فى المجتمع الهندى الاسلامى تأثيراً عظيماً .

سر نجاح هذه المدارس :

و سر نجاح هذه المدارس ـ كديوبند و شقيقاتها ـ فى أداء رسالتها ونشر الدين والعلم ، أنها لم تكن تنال مساعدة من الحكومة ، و كانت قائمة على أساس الزهد و التضحية و الجهاد ، فأثار ذلك فيها روح المقاومة و الجهاد ، و قوة العمل و النشاط ، ثم إن أبناءها المتخرجين لم يكن لهم أمل ـ بطبيعة الحال ـ فى وظائف الحكومة و الرواتب الضخمة ، لأنهم تخرجوا من مدارس حرة لا صلة لها بالحكومة فألجا ذلك أكثر المتخرجين إلى الانقطاع

إلى الشعب دون الحكومة ، والتجرد للدعوة والخدمة دون المناصب والرواتب وهكذا وجد دعاة متجردون محتسبون متطوعون يقتنعون بالكفاف وينقطعون إلى الدعوة والرسالة ، فقاموا بأعمال إصلاحية لا تقوم بها أكبر دولة .

ندوة العلماء و معهدها :

ولما رأى بعض العلماء أن الهوة قد اتسعت جداً بين التعليم المدنى والتعليم الدينى ، وحدثت بين المتخرجين من المدارس الدينية والمتخرجين من المدارس المدنية فجوة وجفوة تتسعان على مر الأيام حتى أصبح أولئك أمة و هؤلاء أمة . و لكل أمة لغـــة خاصة وثقافة خاصة ونفسية متميزة لا يفهمها الآخر ، بل أصبح التعليم الدينى فى واد و العصر الحديث فى واد ولا جسر بينهما ، و قد أصبح هذا العصر يطلب من العالم الدينى ثقافة أوسع ، و أسلوباً للدعوة أرقى و أقرب إلى نفسية هـذا العصر ، و اطلاعاً على ما تجـــدد من العلوم و الأفكار والمسائل والحاجات ، أنشأ القائمون على ندوة العلماء ـ وفى مقدمتهم مولانا محمد على المونكيرى ـ مدرسة دار العلوم فى لكهنؤ سنـة ١٣١٦هـ ، و رسالتها الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع ، والتصلب فى العقيدة والمبادئ ، و التوسع

فى الجزئيات و الوسائل ، وقد خرجت علماء و مؤلفين كانوا ملتقى الثقافتين و برزخاً بين الطائفتين ، و قد ألفوا فى السيرة النبوية والتاريخ الاسلامى كتباً هى خير ما ألف إلى الآن للجيل الجديد ، ولا يزال كتاب « سيرة النبى » فى ستة مجلدات كبار للعلامة شبلى النعمانى (م١٣٣٢هـ) وتلميذه الأستاذ الكبير السيد سليمان الندوى (١) أعظم مؤلف فى السيرة النبوية و تعليمات الاسلام لا يوجد له نظير فى مكتبة الاسلام الحديثة ، ولا يزال لهذا المركز التعليمى نشاط وإنتاج .

حركة التبليغ و صاحب دعوتها مولانا محمد إلياس :

واختصر وازن حديثى هذا بذكر دعوة وحركة دينية قوية كان لى شرف الاتصال بها عن كثب لا عن كتب ، وشرف التعرف بمؤسسها - و بالأصح داعيها - و قد صحبته مدة ، و رافقته فى السفر و الحضر ، فهذا لون جديد من الحديث ، و أريد أن أحدثكم أولا عن صاحب هذه الدعوة فإن الفكرة تتضح كثيراً بمعرفة صاحبها ، و هنا أكرر لكم ما تحدثت به من محطة الاذاعة الهندية فى دهلى عن صاحب هذه الدعوة وتأثرى به ، وكان موضوع

---

(١) توفى رحمه الله فى ١٣ من ربيع الاول عام ١٣٧٣ هـ (٢٦ نوفمبر ١٩٥٣ م)

الحديث « رجال عرفتهم وأعجبت بهم » .

« في سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠) خرجت مع رفيقين أطالع مشاريع التعليم و التربية ومراكزهما في الهند ، و انتهت بي هذه الرحلة إلى دهلي و منها إلى ميوات ، الرقعة التي هي مشهورة في التاريخ باللصوصية والشطارة والنهب و الغارة ، حتى كانت أبواب سور مدينة دهلي تقفل من بعد الغروب خوف هؤلاء اللصوص ؛ فسمعت أنها مجال كبير لاصلاح ديني خلق جديد ، و لما زرتها وجدت انقلاباً مدهشاً في الأخلاق و النفوس ، تنقلت في القرى و الأماكن ، و تتبعت الأخبار ، فعلمت أن الناس الذين كان القتل عندهم أهون شيء ، وقد يقتلون الانسان لأمر تافه ودرهم زائف ، صاروا الان يحرسون الأموال والأعراض و يعفون عن المحارم ، رأيت فيهم إقبالا على العلم و تواضعاً و حفاوة و ضيافة و دماثة خلق و إيثاراً على النفس و ألفـــة و مودة لا توجدان في هذا العصر المادي ، وعزوفاً عن الشهوات وصبراً على المشاق و إيماناً وصلاحاً ، وعلمت أن ألوفاً من الناس هناك تأثروا بهذا الاصلاح و انقلبت نفسيتهم انقلاباً عجيباً .

هنالك فحصت عن منبع هذا الانقلاب فسمعت أن لا جمعية ،

ولا جامعة ، و لا دعاية ، و لا صحيفة ، و لا اكتتاب ، إنما هو رجل متواضع فى دهلى ، قد بث الروح فى هذه الأمة المنحطـــة و هذب النفوس ونشر الدين والعلم ، وحدا بى الشوق إلى زيارته لجئت إلى دهلى فاذا هو رجل نحيف أسمر اللون ، قصير القامة ، كث اللحية تشف عيناه عن ذكاء مفرط وهمة عالية ، على وجهه مخايل الهم و التفكير و الجهد الشديد ، ليس بمفوه و لا خطيب ، بل يتلعثم فى بعض الأحيان و يضيق صدره ولا ينطلق لسانه ، ولكنه كله روح و نشاط وحماسة ويقين ، لا يسأم و لا يمل من العمل ولا يعتريه الفتور و الكسل .

صحبت (مولانا محمد إلياس) مركز هـــذا النشاط الذى وصفته مـــدة طويلة ، ورافقته فى السفر والحضر ، فرأيت نواحى من الحياة لم تنكشف لى من قبل ، فمن أغرب ما رأيت يقينه الذى استطعت به أن أفهم يقين الصحابة ، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيمـاناً يختلف عن إيمـاننا اختلافاً واضحاً كاختلاف الصورة والحقيقة ، إيماناً بحقائق الاسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات و المحسوسات و بخواص الأشياء و الأدوية و مضارها و منافعها و بتجارب حياتنـــا ، فكان كل شئ صح فى الشرائع و ثبت من

للكتاب و السنة حقيقة لا يشك فيها ، وكأنه يرى الجنة و النار رأى عين .

ورأيته فى حالة عجيبة من التألم و التوجع والقلق المدائم ، كأنه على حسك السعدان ، يتململ تململ السليم ، ويتنفس الصعداء لما يرى حوله من الغفلة عن مقصد الحياة ، وعن غاية هذا السفر العظيم وعن خالق هذا الكون ، ومن الاستهانة بقيمة الحياة وتضييعها فى غير محل ، ولا أجد له مثلا إلا كالذى يرى الحريق فى بيت و قد أحاطت النيران بأولاده و أسرته ونفائسه ، فيصرخ و يضطرب و لا يقر له قرار ، و عرفت برؤيته معنى الحب ، وفهمت ما روى عن العشاق و المتيمين ومن استولى عليه الحب ، و صدقت ما نقل عن الأنبياء من الحزن و القلق والحرص على الهداية .

ثالثاً وأخيراً رأيت فى هذا الجسم النحيل الذى كاد يعجز عن أن يحمل ثقله روحاً قوية جداً ، و قوة إرادة و قلب لم أجد مثلها فى الشبان الأقوياء و الأبطال الأشداء ، فكان يتحمل من المشاق ما ينوء بالعصبة أولى القوة ، وقد يظل فى أسفاره أياماً متوالية لا يأكل فيها لشدة الاشتغال ويسهر ليالى . وأعجب

ما رأيت أنه كان في مرضه الذي توفي فيه لا يستطيع القيام و القعود ، و لكنه يأتي إلى الصف يتهادى بين رجلين و يقوم الصلاة و لا يستقل بنفسه ، فاذا كبر الامام تركه الرجلان و قام بنفسه كأنه غير الرجل ويقوم ويركع ويسجد من دون مساعدة ، حتى إذا سلم الامام خارت قوته وعاد ضعيفاً لا يستطيع النهوض ، و بقي هكذا شهوراً و ما فاتته في مرضه صلاة إلى الليلة التي توفي فيها .

الدعوة و مبادئها :

هذا صاحب الدعوة ، و كلمة وجيزة عن الدعوة .

لقد رأى مولانا محمد إلياس ما أصاب المسلمين من التحلل و الافلاس في الايمان و الروح و الشعور الديني في هذه المدة و ما أثرت فيهم الحكومة الانجليزية ، و الحضارة الغربية و التعليم المدني ، و غفلة الدعاة ، و الاشتغال الزائد بالحياة ، والانهماك بالمادة حتى صارت المدارس الشرعية و الأوساط الدينية كجزر في بحر محيط ، وأصبحت تتأثر بمحيطها التأثر على الدين ولا تؤثر ، بضعفها وعزلتها عن الحياة ، فرأى أن التعليم وحده لا يكفي ، و الاعتزال لا يفيد ، والانزواء لا يصح ، ولابد من الاتصال

بطبقات الشعب ، ولابد من التقدم إليها من غير انتظار لأنها لا تشعر بمرضها وفقرها فى الدين ، ويجب أن يبتدأ بغرس الايمان فى القلوب ومبادئ الاسلام ثم الأركان والعلم والذكر، مع مراعاة الآداب التى تقوى هذه الدعوة و تحفظها من الفتن ، منها إكرام كل مسلم ، و منها عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعى و ترك ما لا يعنيه ، وقد دعا إلى هذا النظام بكل قوته ونفوذه ، ودعا إلى الخروج فى سبيل هذه الدعوة و بثها فى القرى و المدن ، و بدأ دعوته بمنطقة هى أحط المناطق الهندية خلقاً و أبعدها عن الدين و أعظمها جهالة و ضلالة ، وهى منطقة ميوات فى جنوب دهلى عاصمة الهند ، ودعا الناس فيها إلى الانقطاع عن أشغالهم والخروج عن أوطانهم لمدة محدودة قد تكون شهراً و قد تكون أكثر من ذلك ، و عرف أنهم لا يتعلمون الدين ولا يتغيرون فى الأخلاق إلا إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد الذى يعيشون فيه ، وقد قبل دعوته مئات وألوف من هذه المنطقة ، وخرجوا شهوراً وقطعوا مسافات بعيدة ما بين شرق الهند وغربها وشمالها و جنوبها ركباناً ومشاة ، فتغيرت أخلاقهم ، و تحسنت أحوالهم ، واشتعلت عواطفهم الدينية ، و انتشرت الدعوة فى الهند و باكستان من غير

نفقات باهظة و مساعدات مالية و نظم إدارية ، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة فى صـــدر الاسلام ، و تذكر بالدعاة المخلصين المجاهدين المؤمنين الذين كانوا يحملون فى سبيل الدعوة و الجهـاد متاعهم و زادهم و ينفقون على أنفسهم و يتحملون المشقة محتسبين متطوعين .

وقد توفى إلى رحمة الله تعالى فى رجب عام ١٣٦٣هـ وخلفه نجله الشيخ محمد يوسف و قام بأعباء الدعوة خير قيام و فى عهده توسعت الحركة توسعاً كبيراً ، و انتشرت بعثاتها فى العالم الاسلامى وفى الغرب ، ودعا إلى الايمان وإيثار الروح على المادة ، والآخرة على الدنيا ، والاعتماد على الله وبذل الوسع والطاقة فى سبيل الله ، دعوة قوية صريحـــة أثرت فى ألوف من الناس فأصبحوا دعاة متطوعين ، و لا يزال مقره « نظام الدين » فى دهلى مركز حياة دينية و دعوة إيمانية ، يؤمها الناس من جهات بعيدة (١) .

جهود المخلصين و تجاربهم ثروة إسلامية عامة :

هذا تاريخ الدعوة الاسلامية فى هذا البلد فى اختصار وهذه مراحلها

(١) توفى مولانا محمد يوسف إلى رحمة الله تعالى فى ٢٩ ذيقعده سنة ١٣٨٤ هـ ، وخلفه الشيخ انعام الحسن الكاندهلوى حفظه الله ، والدعوة فى تقدم واتساع .

وأدوارها ووصفها الموجز ، وأنا أعتقد أن الدعوة فى حاجة دائمة إلى التجديد والتفكير ، والتطبيق بين الاسلام الخالد والعصر المتغير ، و استعراض الشئون والمسائل وما يطرأ على الحياة و العقول من الضعف والقوة ، والجدة والتطور . وأن العصمة لله وحده وأنه لم يختم شئ مما أكرم الله به هذه الأمة إلا النبوة التى ختمت بمحمد ﷺ آخر الرسل وخاتم الأنبياء ، وأن كل ما ذكرنا نماذج ومثل للدعوة الاسلامية ، وأنماط لها وأساليب ، ومناهج وطرق يلهمها أصحاب النفوس الزكية فى مختلف العصور والبلاد ، أو يؤثرونها فى ضوء الكتاب والسنة .

جهود اصلاحية و تربوية أخرى :

وقام رواد الاصلاح ومحبو نهوض المسلمين وعزهم بتجارب كثيرة فى مجال الدعوة الدينية ، والتعليم والتربية الاسلامية ، ونشر الفكرة الصحيحة ، ومكافحة تيار الغرب الثقافى ، والغزو الفكرى ، و إعادة الثقـــة إلى نفوس الشباب المتعلمين بالتعاليم الاسلامية ، والحضارة الاسلامية ، والتاريخ الاسلامى ، و إزالة العقد النفسية و الفكرية ، بأساليب مختلفـــة و طرق شتى ـ فى ضوء تجاربهم ودراساتهم ـ تختلف فى النتائج والآثار وفى ضيق النطاق واتساعه ، و فى مدى تقبل المسلمين لها وانتفاعهم بها ، يطول الحديث فيها ،

و تقصر هذه العجالة عنها ، و قد ألفت فى التعريف بهذه الجهود والمنظمات و أهدافها و نتائجها ، رسائل وكتب فى اللغة العربية. نحيل عليها وننشير على القارئ الذى يحب التوسع بمطالعتها .

وانا أعتقد كذلك أن جهود المخلصين وتجاربهم ثروة إسلامية عامة، ليست ملكا لبلد دون بلد ولا احتكاراً فى شعب دون شعب ، بل هى بضاعة المخلصين فى كل بلد ، ونبراس المصلحين فى كل عصر ، يحق لهم أن يقولوا كلما أهديت إليهم ونقلت عن بلاد إلى بلادهم : « هذه بضاعتنا ردت إلينا » .



فهرس المحتويات

العناوين	الصفحة
هذه الرسالة	٢
كيف انتشر الاسلام فى الهند ؟	٣
الدولة الروحية بجوار الدولة المادية	٤
صلة الملوك بالشيوخ و اجلالهم لهم	٦
سر خضوع الملوك للشيوخ والدعاة و سيرتهم	٧
فتنة أكبر ، و الخطر الأكبر على الاسلام فى الهند	٨
بطانة سوء من العلماء	١٠
معاداة الاسلام	١١
حاجة التجديد إلى عبقرى	١١
الامام أحمد السرهندى	١٢
الخطر فى الثورة العسكرية	١٣
من أين يبدأ الاصلاح ؟	١٤
الأسلوب الحكيم	١٤
التأثير فى بلاط الملك و رجال دولته	١٦

العناوين	الصفحة
يتغير اتجاه الدولة و ترجع الهند إلى الاسلام	١٨
السلطان أورنك زيب من غرس الامام السرهندى	١٩
مآثر أورنك زيب الاسلامية	٢٠
نجاح الامام السرهندى فى مهمته و أهدافه	٢١
ضعف الحكم الاسلامى فى الهند	٢٢
الامام ولى الله الدهلوى	٢٢
خطته فى الاصلاح	٢٣
نجاحه فى عمله	٢٤
الامام أحمد بن عرفان الشهيد و رفقته وتأثيرهم فى الحياة	٢٥
مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنة ، والعاملين بالحديث	٢٨
ثورة الهند و رد فعلها	٣٠
معهد ديوبند و خدمته للدين	٣١
سر نجاح هذه المدارس	٣٢
ندوة العلماء و معهدها	٣٣
حركة التبليغ ، وصاحب دعوتها مولانا محمد إلياس	٣٤
الدعوة و مبادؤها	٣٨
جهود المخلصين و تجاربهم ثروة إسلامية عامة	٤٠
جهود اصلاحية و تربوية أخرى	٤١